سلسلة الموسوعة التراثية للشباب

العقد الفريد

لابن عبد ربه

بقلم

محمد رجب

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

العقد الفريد لشهاب الدين أبي عمر أحمد بن عبدربه - الرياض

٣٨ص، ١٧×٢٢سم

ردمك: ٩-٩٦٧-٢٠-٩٩٦٠

١- الأدب العربي - مجموعات ٢- ابن عبدربه بن أحمد بن محمد، ت ٣٢٨هـ أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ٢٢/١٤٦٩

رقم الإيداع: ١٤٦٩/٢٢ ردمك: ٩-٩٦٧-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

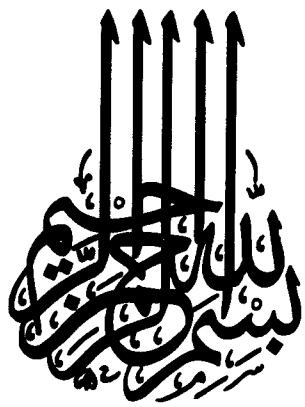
بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالمؤلف:

هو: الأديب أبوعمر أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب بن حدير القرطبي.

كان جده حدير مولى للخليفة هشام بن عبدالرحمن الداخل أو صقر قريش، الذي تولى الحكم بين عامي (١٧٢-١٨٠) للهجرة.

ولد ابن عبدربه في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن، خامس الخلفاء، الذي تولى الحكم عام (٢٣٨) للهجرة.

اتصل ابن عبدربه بالخليفة محمد، وكذا بولديه المنذر وعبدالله اللذين حكما من بعده.

لكن ابن عبدربه صار نديماً خاصاً للخليفة عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام الملقب بالناصر الذي تولى الخلافة عام (٣٠٠) للهجرة، وظل ملازماً له إلى أن توفي مؤلف (العقد الفريد) عام (٣٢٨) للهجرة.

عمل ابن عبدربه في بلاط أمويِّي الأندلس شاعراً ونديماً، فكان أديباً ظريفاً، خفيف الظل، هجّاء، يؤثر الفكاهة والمرح، يغترف من الثقافتين

الدينية والأدبية الغالبتين في الأندلس، يتلقى العلم، وينقل في عقده عن أساتذة أجلاء كانوا أعلام الثقافة في ذلك العهد مثل: عثمان بن المثنى، ومحمد بن وضّاح.

ولابن عبدربه شعر غزير جمعه في ديوان من عشرين جزءاً، وقد أثنى على شعره المتنبي..!

توفي ابن عبدربه عن عمر يناهز الثانية والثمانين بعد إصابته بالفالج..!

سبب تأليف ابن عبدربه عقده الفريد:

في مقدمة كتابه يؤكد شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبدربه الأندلسي أن الهدف من تأليفه لكتابه الشهير نظره في بعض الكتب الموضوعة فلم يجدها حاوية لفنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعل كتابه هذا كافياً، جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحلّى كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها، وقرن بها غرائب من شعره..

وسمى ابن عبدربه كتابه: (العقد الفريد)؛ لأنه يجمع مختلف جواهر الكلام، وجزّأه على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزءان، فهي خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً..!

كتاب (العقد الفريد) كتاب تخيّر صاحبه جواهره من أروع الآداب والبيان، ومنهجه هو اختيار أفضل ما في الكتب السابقة عليه، وجمع الأخبار من أفواه العلماء، وهو منهج يجمع -في رأيي- بين الأصالة من حيث النقل ممن سبقوه، والمعاصرة من حيث اعتمادُه على شهود العيان والرواة.

منهجه في التأليف:

يقول ابن عبدربه: «وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر، ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب، وما سواه مأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافد عقله. وقال الشاعر:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ... ن دليلاً على اللبيب اختياره

محتويات العقد الفريد:

و(العقد الفريد) يحوي شتى الموضوعات أو اللآلئ، ومن ذلك كتاب في السلطان، وياقوتة في العلم والآدب، وزمردة في الأمثال، وعسجدة في

كلام الأعراب، ودرة في أيام العرب ووقائعهم، وزمردة في فضائل الشعر.. إلى غير ذلك من الموضوعات..

ومن هذا الزخم اخترت أن أصحبكم في رحلة عبر (العقد الفريد) لنتفقد اللآلئ والزمرد واليواقيت والدرر في موضوعات السلطان، والعدل، والأمثال، والفكاهات والملح، والألغاز، والمواعظ والزهد، وتاريخ الخلفاء.

ما المقصود بالعقد الفريد[1]؟

العقد بكسر العين هو الخيط يُنظم فيه الخرز. فالعقد يحتوي على نفائس العلوم، والفنون، والآداب، والحكمة، والتاريخ، والسير، فهو موسوعة تراثية خصبة عكف ابن عبدربه على جمعها سنين طويلة دون كلل؛ حتى اكتمل له كل هذا الزخم الرائع..!

* * *

(١) راجع عزيزي الشاب (مختار الصحاح) مادة: عقد.

السلطان...

من هو السلطان؟

في كتابه بعنوان «كتاب اللؤلؤة في السلطان» يعرّف ابن عبدربه السلطان بأنه: «زمَّام الأمور، ونظَّام الحقوق، وقوَّام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا، وهو حِمى الله في بلاده».

قال الصديق أبوبكر لخالد بن الوليد رضي الله عنهما: فِرَّ من الشرف يتبعْك الشرف، واحرص على الموت توهبْ لك الحياة..!

وعن حسن السياسة وإقامة الملك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلحُ لهذا الأمر إلا اللِّينُ من غير ضعفٍ، والقويُّ من غير عنفٍ..!

واشتهر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بالمثل القائل: شَعْرَةُ معاوية..!

قال معاوية: إني لا أضعُ سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضعُ سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرةٌ ما انقطعت..

قيل له: وكيف ذلك؟

فأجاب: كنتُ إذا مدّوها أرخيتُها، وإذا أرخوها مددتها..!

وقالت الحكماء: أَسْوَسُ الناس لرعيته من قادَ أبدانَها بقلوبِها، وقلوبَها بخواطرِها، وخواطرَها بأسبابِها من الرغبةِ والرهبةِ.

وخطب سعيد بن سويد فحمدَ الله وأثنى على رسوله ﷺ، ثم قال:

أيها الناس، إن الإسلامَ حائطٌ منيعٌ وبابٌ وثيقٌ، فحائطُ الإسلامِ الحقُّ، وبابُه العدلُ، ولا يزالُ الإسلامُ منيعاً ما اشتدَّ السلطانُ، وليسَ شدةُ السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاءً وأخذاً بالعدل.

وقال عبدالله بن الحكم: إنه قد يضغن على السلطان (أي: يحقد عليه) رجلان: رجلٌ أحسن في محسنين فأثيبوا وحُرِمَ، ورجلٌ أساء في مسيئين فعوقب وعفا عنهم، فينبغي للسلطان أن يحترس منهما.

* * *

حكاية:

من الحكايات الشهيرة عن المأمون الخليفة العباسي أنه جلس يوماً للقضاء، فأقبلت عليه امرأة في ثياب رثّة (بالية) فوقفت بين يديه وقالت:

– السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وعرضت مسألتها في ثلاثة أبيات هي:

يا خيرَ منتصفٍ يُهدى له الرشدُ ... ويا إمـامـاً به قـد أشـرقَ البلدُ
تشكو إليكَ عـميـدَ القومِ أرملةٌ ... عدا عليها فلم يتركْ لها سبدُ[1]
وابتزَّ مني ضياعي بعد منعتها ... ظلمـاً وفـرّق مني الأهل والولد

فأمرها المأمون بأن تعود إليه في اليوم التالي ومعها خصمها المشكو من حقه، فلما حان الحين تقدمت المرأة إليه وقالت:

– السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ فقال: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغر لها ضيعتها[2]، ويحسن معاونتها وأمر لها بنفقة.

فأي عدل هذا..؟ أمير المؤمنين المأمون يقتص من ولده لأجل امرأة جاءت تشكو..!

---

(١) السَبَد: ما يطلع من رؤوس النبات.

(٢) الإيغار: جعل الأرض بلا خراج.

قال الحكماء: لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه، ولا ينفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك ألا يتركوا محسناً ولا مسيئاً دون جزاء، فإنهم إذا تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل..!

قال عمرو بن العاص: لا سلطانَ إلا بالرجالِ، ولا رجالَ إلا بمالٍ، ولا مالَ إلا بعمارةٍ، ولا عمارةَ إلا بعدلٍ..!

صفات الإمام العادل:

لابد أن يتصف الإمام العادل بإقامة ما اعوجّ من الأمور، وإصلاح ما فسد، وتقوية الضعفاء، وإنصاف المظلومين، وأن يكون راعياً لأمته يحميها من كل الأعداء، وأن يكون أباً يحنو على أولاده، وأمّاً شغوفاً على أولادها، ووصياً على أمته كالوصي على اليتامى، وخازناً للمساكين يربي صغيرهم ويعين كبيرهم.

على الإمام العادل كذلك أن يحسن السيرة ويرفعه بالرعية..

يقول ابن عبدربه:

قال الله تعالى لنبيّه ﷺ فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾، وقال النبي ﷺ: «**من أعطي حظه من**

الرفق فقد أعطي حظه من الخير كله، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله».

ولما استخلف عمر بن عبدالعزيز أرسل إلى سالم بن عبدالله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا علي، فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابناً، فبرَّ أباك واحفظ أخاك وارحم ابنك.

وقال محمد بن كعب: أحبب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك أول خليفة يموت.

وقال عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز لأبيه عمر: يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور.

قال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعونه وتكون فتنة.

وعلى الإمام كذلك أن يأخذ رعيته بالحزم والشدة.. قال الحكماء: أحزمُ الملوكِ من قهرَ جَدُّه هَزْلَه، وغلبَ رأيُه هواه، وأعربَ عن ضميره فعلُه، ولم يخدعْه رضاه عن سخطه، ولا غضبُه عن كيدِه.

ولأهمية مبدأ الشورى وضرورته لولي الأمر وصاحب السلطان يعقد ابن عبدربه فصلاً فيقول: إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بمشاورة من هو دونه في الرأي، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

ولما همت ثقيف بالارتداد بعد موت النبيّ ﷺ استشاروا عثمان بن أبي العاص وكان مطاعاً فيهم، فقال لهم: لا تكونوا آخرَ العرب إسلاماً، وأولَهم ارتداداً. فنفعهم الله برأيه.

وسُئل بعض الحكماء: أيُّ الأمور أشدُّ تأييداً للعقل وأيها أشدُّ إضراراً به؟ فقال: أشدُّها تأييداً له ثلاثة أشياء: مشاورةُ العلماء، وتجربةُ الأمور، وحسنُ التثبت. وأشدُّها إضراراً به ثلاثة أشياء: الاستبدادُ، والتهاونُ، والعجلةُ.

قالت الحكماء: ما كنتَ كاتمه عدوَّك فلا تطلع عليه صديقك، وصدرُك أوسعُ لسرِّك، وسرُّك من دمِك..!

وعن القاضي العادل وصفاته:

يقول ابن عبدربه: قال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علمٌ بما كان قبله، ونزاهةٌ عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل الرأي والعلم.

وقال كذلك: إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يأتي خصمه؛ فلعله قد فقئت عيناه جميعاً.

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يقول: إذا تقدم الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه، وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تتعاهده سقط حقه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيّع حقه من لم يرفق به، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء..!

دخل الأشعث بن قيس على شُريح القاضي في مجلس الحكومة فقال: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه، فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث، فقال له شُريح: قم فاجلس مجلس الخصم وكلّم صاحبك. قال: بل أكلّمه من مجلسي، فقال له شُريح: لتقومنّ أو لآمرنَّ من يقيمك..!

* * *

الأمثال...

ما المثل؟

يعرِّف ابن عبدربه الأمثال بأنها وشي الكلام (أي: زينته)، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني التي تخيرتها العرب، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان.

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه فقال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾، و﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ**﴾، وغير ذلك كثير من آيات القرآن..

من أمثال رسول الله ﷺ:

من الأمثال المشهورة للرسول ﷺ: «**ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جَنَبَي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخية، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول: ادخلوا الصراط ولا تعوجوا. فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله، والأبواب: محارم الله، والداعي: القرآن**».

و«**لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرتين**»، فالمؤمن لو لدغ مرة احترس بعد ذلك.

من أمثال الحكماء:

١- أسخى من حاتم: هو حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي، من أشهر أجواد العرب في الجاهلية، مات عام (٤٥ق .هـ) .

٢- أوفى من السموءل: هو السموءل بن غريض بن عادياء، شاعر جاهلي حكيم، يضرب به المثل في الوفاء، توفي نحو عام (٦٥ق .هـ) .

٣- أحلم من الأحنف بن قيس: الأحنف بن قيس هو الضحاك بن قيس سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم وقد توفي سنة (٦٧هـ) .

٤- أكذب من مسيلمة الحنفي: ادعى النبوة في اليمامة وتسمى برحمان اليمامة، ومن الطريف أنه أرسل إلى رسول الله ﷺ رسالة جاء فيها: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليكم، أما بعد: فإني أُشركت في الأمر معك، وإن لنا لنصف الأرض ولكن قريشاً قوم لا يعدلون» وقد قتله وحشي الحبشي في موقعة اليمامة.

٥- أبصر من زرقاء اليمامة: كانت زرقاء اليمامة امرأة تعيش في أرض اليمامة بالجزيرة العربية واسمها زرقاء بنت نمير، وكانت هذه المرأة حادة البصر لدرجة أنها تبصر الشعرة في اللبن، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها الجيوش إذا غزتهم، فلا يأتيهم جيش إلا وقد

استعدوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجراً وأمسكوها أمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء، فقالت: إني أرى الشجرة قد أقبلت إليكم، قالوا لها: قد خرفت وذهب عقلك ورق بصرك، فكذّبوها، وصبحتهم الخيل، وأغارت عليهم، وقتلت الزرقاء..!

٦- **خفا حنين**: ساوم إسكافي أعرابياً بخفين، فاختلفا على الثمن وغضب الإسكافي من الأعرابي وأراد أن يغيظه. ارتحل الأعرابي فأخذ حنين أحد الخفين وألقاه في طريق الأعرابي، ثم ألقى الآخر بموضع آخر، فلما مر الأعرابي بالخف الأول لم يأخذه، ولما مر بالآخر ندم على ترك الأول، وأناخ ناقته ورجع إلى الخف الأول، وهنا انتهز حنين الفرصة ورحل بناقة الأعرابي، ورجع الأعرابي إلى قبيلته بخفي حنين.

٧- **ما يشق غباره**: ويضرب هذا المثل للرجل المبرز في الفضل.

٨- **ما يوم حليمة بسر**: ويضرب هذا المثل لكل أمر مشهور، ويعود المثل إلى موقعة قتل فيها المنذر بن ماء السماء.

٩- **البغاث بأرضنا تستنسر**: ويضرب في الرجل العزيز يعز به الذليل، والبغاث هي صغار الطير التي تصير نسوراً.

١٠- **ما يصطلى بناره**: للرجل الصعب.

١١- يعلم من حيث تؤكل الكتف: للأريب الداهية.

١٢- إنه لنقَّاب: للعالم النحرير.

١٣- كان جملاً فاسْتَنْوَق: أي صار ناقة ويضرب للذل بعد العز.

١٤- كنت كراعاً فصرت ذراعاً: للانتقال من الذل إلى العز.

١٥- فلان لا يعوي ولا ينبح من ضعفه: ويضرب للذليل المستضعف.

١٦- هما كَفَرَسَي رهان: لتساوي شخصين في الخير والشر.

* * *

الفكاهات والـمُلَحُ والألغاز

ما هي الملح؟

يعـرّف ابن عـبـدربه الـمُلَحَ بأنهـا نزهة النفس، وربيع القلب، ومـرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور.

روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت». وكان ﷺ يضحك حتى تبدو نواجذه

من نوادر أشعب:

١- **الرجل والقوس**: ساوم أشعب رجلاً بقوس، فقال: أقلُّ ثمنها دينار. فقال أشعب: والله لو أنك إذا رميت بها طائراً في السماء فوقع مشوياً بين رغيفين ما اشتريتها منك بدينار أبداً.

٢- **هل تسلِّفني**؟ سأل رجل أشعب أن يسلفه ويؤخره. فقال: هاتان حاجتان، فإذا قضيت لك إحداهما فقد أنصفت. قال الرجل: رضيت. قال: فأنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك..

٣- **أشعب والنجار**: مر أشعب برجل نجار يعمل طبقاً فقال له: زد فيه طوقاً واحداً تتفضل به عليّ. قال: وما يدخل عليك؟ قال: لعل يوماً يهدى إليّ فيه شيء..!

من نوادر أبي دلامة:

١- مع المهدي والصيد: خرج أبودلامة مع الخليفة العباسي المهدي للصيد، فعنَّ لهم ظبي فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأ وأصاب كلباً، فضحك المهدي وقال لأبي دلامة قل، فقال:

قد رمى المهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليمان ... رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كل ... امرئ يأكل زاده

٢- اطلب ما تشاء: دخل أبودلامة على المهدي فأسمعه مديحاً، فأعجبه، وقال له: سل حاجتك، قال: كلب صيد أصطاد به. قال: قد أمرنا لك بكلب صيد، قال: وغلام يقود الكلب. قال: قد أمرنا لك بغلام. قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وأمرنا لك بخادم. قال: ودار نأوي إليها. قال: أمرنا لك بدار.

من نوادر بشار بن برد:

قال محمد بن الحجاج: قال لي بشار ذات يوم، وهو يعبث وكان مات له حمار قبل ذلك: رأيت حماري البارحة في النوم، فقلت له: ويلك مالك مت؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا وكذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً[١] عند بابه، فعشقتها فمت وأنشد:

(١) الأتان: الحمارة، «القاموس»: أتن.

سـيـدي خـذ لي أمـاناً ... مـن أمـان الأصـبـهـاني
إن بـالـبـاب أتـانـاً ... فـضـلـت كـل أتـان
تـيـمـتـني يـوم رحـنـا ... بـثـنـايـاهـا الحـسـان
وبـغـنـج ودلال ... سـل جـسـمـي وبـراني
ولـهـا خـدٌّ أسـيـل ... مـثـل خـد الشـنـقـراني
فـبـهـا مـت ولـو عـشـ ... ـت إذاً طـال هـوانـي

فـقـال له رجل من القـوم: يا أبامـعـاذ مـا الشـنـقـراني؟ قـال: هو شيء يتحدث به الحمير. فإذا لقيت حماراً فاسأله.

الألغاز:

الخاتم: قال المأمون يصف خاتماً:

وأبيض أمـا جـسـمـه فـمـدور ... نـقي وأمـا رأسـه فـمـعـار
ولم يكتسب إلا ليسكن وسطه ... مـؤنثـه لم تكـس قط خـمـار
لهـا أخـوات أربـع هـن مثـلـهـا ... ولكنهـا الصـغـرى وهن كـبـار

الأرنب:

لهـوت بذات رأس والتـيـاث ... كـرفع الأصـبـعين على الثـلاث
إذا السـبـابة ارتفـعـت مع الخنـ ... ـصر اجتـمع الثلاث بلا انتكاث

لـهـوت بـهـا تطـيـر بلا جـنـاح وتنسب في الذكـور وفي الإناث

البيضة:

ألا قل لأهل الرأي والعلم والأدب وكـل بـصـيـر بالأمـور لـدى أرب
ألا خـبـرونـي أي شـيء رأيـتـم من الطير في أرض الأعاجم والعرب
قـديم حـديث قـد بدا وهو حـاضـر يصاد بلا صيد وإن جد في الطلب
ويؤكل أحـيـاناً طبـيـخـاً وتارة قليـاً ومـشـوياً إذا دس في اللهب
ولـيـس لـه لحـم ولـيـس لـه دم وليس له عظم وليس له عـصب
ولـيـس لـه رجـل ولـيـس لـه يـد ولـيـس لـه رأس ولـيـس لـه ذنـب
ولا هـو حـي ولا هـو مـيـت ألا خـبـروني إن هذا هو العـجب

* * *

المواعظ والزهد

يؤكد ابن عبدربه أن أبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

من مواعظ الرسول ﷺ:

قال ﷺ: «**ابن آدم اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»، وقال ﷺ: «**أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**».

من مواعظ داود عليه السلام:

قال داود عليه السلام: «يا رب ابن آدم ليس منه شعرة إلا وتحتها لك نعمة وفوقها لك نعمة، فمن أين يكافئك بما أعطيته؟ فأوحى الله إليه: يا داود، إني أعطي الكثير، وأرضى من عبدي بالقليل، وأرضى من شكر نعمتي بأن يعلم العبد أنه ما به من نعمة فمن عندي لا من عند نفسه».

من مواعظ المسيح عليه السلام:

قال عليه السلام للحواريين: «اتخذوا المساجد بيوتاً، والبيوت منازل، وكلوا بقل البرية، واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين»، وقال لهم: «لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: مبتلى، ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»، وقال: «شوقناكم فلم تشتاقوا، ونحنا لكم فلم تبكوا، يا صاحب الخمسين، ما قدمت وما أخرت، يا صاحب الستين، قد دنا حصادك، ويا صاحب السبعين هَلُمَّ إلى الحساب».

من مواعظ الحكماء:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أوصيكم بخمس لو ضربت عليها آباط الإبل لكان قليلاً: لا يرجوَنَّ أحدكم إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه، واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد».

وقال أيضاً: «من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بلا عشيرة، فليتحول من ذل المعصية إلى عز الطاعة، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»، وقال للحسن

ابن علي: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء».

وقال أبوبكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند موته حين استخلفه: «أوصيك بتقوى الله فإن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، وأن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا سمعت بهم قلت إني أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حسناتهم، فإذا سمعت بهم قلت أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب، ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق، فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه».

وقال أبوالدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أهل دمشق، ما لكم تبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عاد وثمود قد ملؤوا ما بين بصرى وعدن أموالاً وأولاداً؛ فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين؟»

وقيل لحكيم: عظني، قال: المواعظ كلها منتظمة في حرف واحد. قال: ما هو؟ قال: تجمع على طاعة الله، فإذا أنت قد حويت المواعظ كلها.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: أما بعد، فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكراً، وصمتك فكراً، ونظرك عبراً، فإن الدنيا تتقلب، وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد، والسلام.

فأجابه أبوالدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سلام عليك، أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، ومن جفائك لمودتك، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين: إما في الجنة، وإما في النار، فإنك لا تدري إلى أيهما تصير.

وقال لقمان لابنه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً

للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين، يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تسأل عما لا يعنيك، يا بني، لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت، يا بني، إنه من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم، يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء.

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبدالله رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن من اتقى الله كفاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن اقترضه جزاه، فاجعل التقوى عمار قلبك وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا خير لمن لا خشية له، ولاجديد لمن لا خلق له».

* * *

الخلفاء وتواريخهم وأخبارهم

الرسول الأعظم ﷺ :

يتحدث ابن عبدربه عن الخلفاء الراشدين حديثاً طويلاً شيقاً ذا شجون، ويبدأ حديثه بخير البشر رسول الله ﷺ، إنه يبدأ الحديث عن المصطفى بذكر نسبه الشريف فيقول:

روى أبوالحسن علي بن محمد بن عبدالله بن أبي يوسف عن شيوخه: هو محمد رسول الله ﷺ بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن مالك بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وأمه ﷺ هي آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب...

ولد رسول الله ﷺ عام الفيل لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول، وأوحى الله إليه وهو ابن أربعين عاماً.. وأقام بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشراً.

هاجر إلى المدينة يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول، توفي يوم الإثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول، اليوم والشهر الذي هاجر فيه ﷺ.

وعن صفة النبيّ ﷺ يورد ابن عبدربه وصفاً له ﷺ على لسان مولاه وخادمه أنس بن مالك رضي الله عنه.

وصف أنس رضي الله عنه الرسول ﷺ فقال:

«كان رسول الله ﷺ أبيض، مشرباً بحمرة، ضخم الرأس، عظيم العينين، أدعج، أهدب، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صبب، ويمشي في صعد كأنما يتقلع من صخر، إذا التفت التفت جميعاً، ليس بالجعد القطط ولا السبط، ذا وفرة إلى شحمة أذنيه، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطاهن، عَرْفه أطيب من المسك الأذفر، لم تلد النساء قبله ولا بعده مثله، بين كتفيه خاتم النبوة كبيض الحمامة، لا يضحك إلا تبسماً، في عنفقته شعرات بيض لا تكاد تبين».

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لم يبلغ الشيب الذي كان برسول الله ﷺ عشرين شعرة، وقيل له: يا رسول الله، عجل عليك الشيب، قال: «**شيبتني هود وأخواتها**».

وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويمشي في الأسواق، ويلبس العباءة، ويجالس المساكين، ويقعد القرفصاء، ويتوسد يده، ويلعق أصابعه، ويقضي من نفسه، لا يأكل متكئاً، ولم ير قط ضاحكاً ملء

فيه، وكان يقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، ولو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت**».

وعن شرف بيت النبوة، يقول ابن عبدربه:

قال النبيّ ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ؛ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأول مشفع ولا فخر**».

وقال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**».

الصديق أبوبكر رضي الله عنه:

ثم أتى بذكر الخلفاء الراشدين، فذكر نسبهم وطرفاً من حياتهم وخلافتهم.. وبدأ بأبي بكر الصديق:

هو عبدالله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تميم بن مرة، وأمه أم الخير ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تميم بن مرة.

قيل لعائشة: صفي لنا أباك..!

قالت: كان أبيض نحيف الجسم، خفيف العارضين، أحنى لا يستمسك إزاره، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع أقرع، وكان يخضب بالحناء والكتم[1].

وتوفي رضوان الله عليه مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ الهجري، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وكان نقش خاتمه:

خاتم أبي بكر، نعم القادر الله..!

ويتحدث ابن عبدربه عن فضائل أبي بكر رضي الله عنه قائلاً:

قال ﷺ: «**هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة، فقالوا جميعاً: كذبت، وقال أبوبكر: صدقت..**»

وهو صاحب رسول الله ﷺ وجليسه في الغار، وأول من صلى معه وآمن به واتبعه.

ولما قبض أبوبكر رضي الله عنه سجي بثوب، فارتجت المدينة من البكاء، ودهش القوم كيوم قبض فيه رسول الله ﷺ، وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول: رحمك الله أبا بكر كنت والله أول

(١) الكتم: نبات يختضب به.

القوم إسلاماً، وأصدقهم إيماناً وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غنى، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأجدهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً، صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، كنت والله للإسلام حصناً وللكافرين ناكباً، لم تفلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيف عندك قوي، والقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذه للضعيف، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

* * *

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرط.

يصفه ابن عبدربه ويقول: كان عمر رضي الله عنه رجلاً آدم مشرباً بحمرة، طويلاً، أصلع له حفافان، حسن الخدين والأنف والعينين، غليظ القدمين

والكفين، مجدول اللحم، حسن الخلق، ضخم الكراديس[1]، أعسر أيسر، إذا مشى كأنه راكب.

ولي الخلافة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ. وطعن لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من التاريخ فعاش ثلاثة أيام ويقال: سبعة أيام.

كان إسلام عمر رضي الله عنه فتحاً، وهجرته نصراً وإمارته رحمة.

لم يكن عمر رضي الله عنه أطول أصحاب رسول الله ﷺ صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكنه كان أزهدهم في الدنيا، وأشدهم في أمر الله..

وعن مقتل عمر رضي الله عنه واستشهاده يقول ابن عبدربه:

كان للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه غلام نصراني يقال له فيروز أبولؤلؤة، وكان نجاراً لطيفاً، وكان خراجه ثقيلاً، فشكا إلى عمر رضي الله عنه ثقل الخراج، وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف عنه من خراجه، فقال له: وكم خراجك؟ قال: ثلاثة دراهم في كل شهر. قال: وما صناعتك؟ قال: نجار، قال: ما أرى هذا ثقيلاً في مثل صناعتك. فخرج مغضباً، ثم إن أبا لؤلؤة تربص بعمر في صلاة الصبح وطعنه بخنجر محدود الطرفين ثلاث طعنات، فقتله، وطعن في

(١) الكراديس: رؤوس العظام، واحدها كردوس، وكل عظمين التقيا في مفصل فهو كردوس.

المسجد معه ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فأقبل رجل من بني تميم يقال له حطان فألقى كساء عليه ثم احتضنه، فلما علم العلج أنه مأخوذ طعن نفسه، وحُمِلَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بيته، فعاش ثلاثة أيام ثم مات، وكان قد استأذن عائشة رضي الله عنها أن يدفن في بيتها مع صاحبيه فأجابته وقالت: والله لكنت أريد ذلك المضجع لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي.

وكانت ولاية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشر سنين.. وكان قد جعل الشورى بين ستة من المسلمين هم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم ليختاروا منهم خليفة يلي أمر المسلمين..!

* * *

عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف. أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس.

كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبيض مشرباً صفرة كأنها فضة وذهب، حسن القامة، حسن الساعدين، سبط الشعر، أصلع الرأس، أجمل الناس إذا اعتم، مشرف الأذنين، عظيم الأرنبة، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ولي الخلافة

منسلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقتل يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين، فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة وستة عشر يوماً، وهو ابن أربع وثمانين سنة.

ويذكر ابن عبدربه من فضائل عثمان أنه أصاب الناس مجاعة في غزوة تبوك، فاشترى عثمان طعاماً على ما يصلح العسكر وجهز به عيراً، فلما رأى النبيّ ﷺ ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: «**اللهم، إني قد رضيت عن عثمان فارض عنه**».

وكان عثمان رضي الله عنه حليماً سخياً محبباً إلى قريش، حتى كان يقال: أحبك الرحمن حب قريش لعثمان. زوجه النبيّ ﷺ رقية ابنته، فماتت عنده، فزوّجه أم كلثوم ابنته أيضاً.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هو علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف.

كان علي رضي الله عنه أصلعاً بطيناً. قتل عليّ يوم الجمعة بالكوفة وهو خارج إلى المسجد لصلاة الصبح، لسبع بقين من شهر رمضان، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، صلى عليه ولده الحسن، ودفن برحبة الكوفة. قتل وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

ولد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمكة في شعب بني هاشم، وأسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو أول من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من الفتيان.

قال ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**».

وقال له ﷺ: «**أما ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي**».

جمع النبيُّ ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين رضي الله عنهم، فألقى عليهم كساءه وضمهم إلى نفسه ثم تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾.

تعليق: لا بد من التنبيه إلى أن ابن عبدربه لم يكن حجة في التاريخ، وإنما هو ناقل لأحداث التاريخ ليس إلا، ولا بد أن نعود إلى كلماته في مقدمة كتابه حيث يقول:

«وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب».. وعليه فلا بد من التأكد من صحة ما يسوقه من الروايات التاريخية والله الموفق.

* * *

وبعد؛ فقد أجاد ابن عبدربه دراسة علوم عصره، يتجلى أثر ذلك في أبواب كتابه كلها، حيث امتاز بسعة الرأي والنظر، ومحبة الدعابة والهجاء والفكاهة، وعذوبة اللفظ وسهولته ووضوح المعنى والبعد عن التكلف، وقد أحسن ابن عبدربه الاختيار في عقده، فدل على سلامة ذوقه، ورجاحة عقله، وغزارة مادته، وأصالة أدبه..!

* * *

Printing & Packaging
Tel: (02) 264 7144